الفصل السادس

المنهج المقارن

المنهج المقارن

بدايةً ينبغي أن نبرز عدداً من النقاط ذات أهمية بالغة، وإن كانت بدهية لدي المشتغلين بالتربية المقارنة. وأول هذه الأمور هو أن موضوع الإيديولوجيا يمثل المحور الذى تدور حوله الدراسة المقارنة لنظم التعليم. أما الأمر الثاني فهو أنّ كل موضوعات التربية سواء ما يتصل منها بفلسفة التربية والمناهج وطرق التدريس والإدارة التعليمية والإدارة المدرسية وإعداد المعلمين ونظم الامتحانات والإشراف الفنى ، وغيرها - تعتبر كلها من مجالات البحث فى التربية المقارنة، طالما درست هذه الموضوعات أو المشكلات المتصلة بها دراسة تحليلية تفسيرية ، تلقى الضوء عليها، وتربط بينها وبين الأيديولوجيا السائدة أو الشخصية القومية،أو القوى الثقافية،التى أثرت فيها (عبد الغني عبود واخرون، ١٩٨٩).

وثالث الأمور وأخرها هو أن الكشف عن القوى الثقافية التى تقف وراء النظام التعليمى أو النظم التعليمية فرض عين علي كل باحث ينتهج البحث المقارن كأداة لدراسته وكطريقة للوصول إلي غايته العلمية (عبد الغني عبود واخرون، ١٩٨٩). وبالكشف عن الأسباب أو القوي والعوامل المؤثرة التى تقف وراء نظم التعليم ومشكلاته نستطيع قدر الإمكان- تفسير كل ظاهرة أو مشكلة تعليمية وكذلك تكوين رؤية واضحة للحلول المحتملة والمناسبة للمشكلات التعليمية التى تبحث عن حل ، وبذلك تساهم التربية المقارنة مساهمة إيجابية فى حل مشكلات التعليم ،بفضل هذا الفهم الأكبر وهذه الرؤية الأوضح لتلك المشكلات التى تدرس ولنظم التعليم التى تبحث.

أما عن المنهج المقارن فقد أطلق عليه فيما قبل أسماء متعددة، كان كل منها يعكس طبيعة المرحلة التى تمر بها التربية المقارنة فى تطورها، ولكن كلا منها كان يمس جانبا واحد منها فقط، فأطلق عليه [منهج الاستعارة] وواضح أنه سمى كذلك فى مرحلة كان

الهدف من التربية المقارنة فيها هو نقل واستعارة نظم التعليم فى البلاد المتقدمة، حيث ثبت خطأ الهدف وخطأ المنهج معا ، كما أطلق عليه [المنهج الوصفى] فى تلك المرحلة أيضا ، أو بعدها بقليل. بيد أن التربية المقارنة ليست مجرد وصف لنظم التعليم ومشكلاته حتى يكون [المنهج الوصفى] هو منهج البحث فيها.

كما أطلق عليه [المنهج التحليلى] أو[المنهج التفسيرى] بعد انتقال التربية إلى المرحلة الثالثة من مراحل نموها [مرحلة الربط بين نظم التعليم ومجتمعاتها] وأطلق عليه فى تلك المرحلة أيضا [منهج القوى والعوامل] واسمه أكثر تحديدا من [المنهج التحليلى أو التفسيرى] ولكن أحدهما [المنهج التحليلى منهج القوى والعوامل] لا يدل إلا على جانب واحد فقط من الجوانب العديدة التى تتناولها التربية المقارنة، وأخيرا أطلق عليه [المنهج العلمى] فى المرحلة الأخيرة غير أن [المنهج العلمى] اسم كبير ، يشمل كل المناهج المستخدمة فى العلوم الطبيعة والإنسانية والتربوية ، هو – نتيجة لذلك – لا يدل على شئ على الإطلاق. ومن ثم كان [المنهج المقارن] هو أنسب المناهج المستخدمة وأكثرها دلالة على التربية المقارنة وأكثرها شمولا للمناهج الفرعية المستخدمة فيها.

وبالطبع لكى تتم المقارنة بين ظاهرتين سلوكيتين فى ثقافتين مختلفتين لابد مثلما يذكر عبد الرحمن عدس (١٩٩٢) – من وجود قدر من الاشتراك بينهما من ناحية وقدر من الاختلاف من ناحية أخرى: ومعنى ذلك أن يكون من الممكن وضعهما فى بعد واحد من حيث التشابه ثم الحكم عليهما حكما صحيحا من حيث الاختلاف فى ضوء علاقة كل منهما بالأخر. وهكذا فلكى نقارن بين الثقافات لابد من وجود عموميات ثقافية أو معادلات ثقافية. والتطابق الثقافى فى الأبعاد يؤكد هذا التشابه ، وكذلك لابد من وجود تغاير أو اختلاف يؤكد التنوع.

مجالات البحث فى التربية المقارنة

من المفهوم الشامل للتربية المقارنة يتضح لنا أن البحث فيها متعدد المجالات وإن كان بعض المعاصرين من المشتغلين بالتربية المقارنة يرون أنها تقتصر على مجالين رئيسيين هما :

١. الدراسات المنطقية.

٢. الدراسات المقارنة.

أما النوع الأول فهو يركز على دراسة النظام التعليمى فى أحد البلاد أو الأقاليم بل قد يكون فى مدينة أو قرية، تمثل منطقة ثقافية معينة على المستوى القومى بالنسبة للدارس (كمصر مثلاً) أو خلاف ذلك كأى بلد من البلاد الأجنبية تتضح فيه الدراسة المقارنة وقد تشمل مجموعة من البلاد لها سمات معينة، بل قد تشمل قارة بأكملها . وهذا النوع يعتبر أساساً هاماً فى الدراسات التربوية المقارنة كتمهيد لما يلى بعده من دراسات .

وأما النوع الثانى فهو يعنى مقارنة أوضاع التربية فى أكثر من بلد أو منطقة ويتناول فيه الدارس مشكلة تعليمية أو ناحية تربوية بأسلوب تحليلى شامل بهدف التعرف على القوى والمؤثرات المتعلقة بها وبيان أوجه الشبه والاختلاف بينها.

والواقع أن مجالات البحث فى التربية المقارنة تتناول بالإضافة إلى النوعين السابقين عدة ميادين وأنواع يمكن أن تندرج تحت هذين النوعين؛ من بينها :

(أ) المقارنة العامة بين نظامين تعليميين أو أكثر، والموازنة بينهما فى جميع مظاهرهما.

(ب) المقارنة الخاصة . كدراسة مشكلة تعليمية ، أو نوع من التعليم فى بيئة واحدة أو بيئات مختلفة فى ضوء ظروف واعتبارات معينة .

(ج) المقارنة بين العوامل الثقافية المختلفة (سياسية ، اجتماعية ، اقتصادية الخ) التى تتحكم فى نظم التعليم المعاصرة فى بلاد مختلفة .

(د) المقارنة بين أنظمة التعليم المعاصرة فى بلاد مختلفة مع ربطها بأسسها التاريخية على أن يكون استخدامها وظيفياً وليس لمجرد التاريخ .

(هـ) المقارنة الإحصائية فى بلاد مختلفة فيما يتعلق باقتصاديات التعليم، من ميزانية وتكلفة وتجهيزات وتلاميذ ومعلمين ... الخ، ومقارنة ذلك بالدخل القومى والتعليم كاستثمار.

(و) المقارنة بين نظم التعليم أو وسائل التثقيف ومقتضيات المصلحة القومية العامة فى بلاد مختلفة كدراسة الإحصائيات الخاصة بمكافحة الأمية مثلاً أو غير ذلك.

(ز) الدراسة المقارنة التى تتناول مشاهير الشخصيات التربوية .. ممن كان لهم أثر واضح فى اتجاهات التربية وبخاصة المعاصرين منهم.

(ح) وأخيراً هناك ما يسمى بالدراسات المقارنة العالمية وهى ما تقوم به الهيئات أو المنظمات الدولية أو العالمية كمنظمة " اليونسكو " الدولية أو المكتب الدولى للتربية وذلك بتناول جوانب من التعليم أو مشكلاته على الصعيد الدولى أو مجموعات الدول طبقاً لمعايير معينة لها دلالات خاصة .

ويتضح من ذلك أن مجال الدراسة فى التربية المقارنة واسع ومتشعب حتى أننا لا نستطيع أن نقول أنّ كل ما فى المجال التعليمى والتربوى يمكن أن يكون موضوع مقارنة.

أهداف المنهج المقارن

يمكن القول بأن المنهج المقارن فى التربية وغيرها يستهدف الكشف عن أوجه الشبه وجوانب الاختلاف فى القوى والعوامل التى تلعب دوراً فى تشكيل النظم التعليمية وتحديد

خطوط سيرها وذلك بقصد التوصل إلى المبادئ العامة الكامنة التى تحكم تطور التعليم (محمد مرسي، ١٩٧٧). ومن ثم يحقق هذا المنهج النفع والإصلاح فى نطاق المجالات والميادين التى تجرى خلالها هذه الدراسات وتلك البحوث (نبيل صبيح و أخرون ، ١٩٨٧).

كذلك من أهداف المنهج المقارن تدريب الكاتب على تحليل العوامل والقوى التى تدخل فى تحديد نوع التعليم ونظامه فى بلد ما ذلك أن المنهج المقارن يمكنه من النظر إلى التربية على أنها عملية اجتماعية ثقافية بمعناها الواسع وعن طريق المنهج المقارن يستطيع الكاتب أن يلاحظ الأحداث أو الثورات العنيفة التى تغير وجه الحياة فى كثير من بلاد العالم سواء كان ذلك من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو غيرها مما يؤدى إلى وجود نظم تعليمية جديدة تختلف عما سبقتها (عرفات عبد العزيز، ١٩٧٩).

ويذكر أحمد عبد المطلب (١٩٨٩) أنّ استخدام المنهج المقارن فى الدراسات والبحوث المقارنة سواء فى مجال العلوم الأدبية والقانونية مثل الأدب المقارن والقانون المقارن ثم فى مجال التربية والتعليم مثل التربية المقارنة يحقق فوائد كثيرة وأهدافا جمة يمكن ايجازها فيما يلي:

(١) إنّ استخدام المنهج المقارن فى الدراسات والبحوث المقارنة فى مختلف ميادين المعرفة يستتبعه تعميق التواضع والاعتدال فى نفوس الباحثين الذين يقومون بإجراء هذه الدراسات والبحوث تجاه نظمهم القومية، وذلك لأن إطلالتهم – من خلال دراساتهم وبحوثهم المقارنة – على النظم التعليمية والتقدم العلمى فى الدول المقارنة تحفظهم من السقوط فى هوة الغرور وتصونهم من الدخول فى دائرة الخيلاء والإعجاب بالنظم القومية.

(٢) يحقق استخدام المنهج المقارن فى الدراسات والبحوث المقارنة قدراً جيداً من المتعة العقلية للباحثين الذين يتصدون لهذه الدراسات وتلك البحوث وتتحقق هذه المتعة من خلال السياحة المعرفية التى يقوم بها الباحثون عبر الدول محل المقارنة أو عبر تاريخ أوطانهم من خلال ما يقومون بإجرائه من دراسات وبحوث مقارنة.

اجراءات المنهج المقارن

يسير الكاتب في التربية المقارنة وفق واحدة من الطرق الخمسة التالية:

الطريقة الأولي :

تسير هذه الطريقة في عدد من الخطوات يمكن ايجازها في السطور التالية:

١. الإحساس بمشكلة من المشكلات التى تعترض النظام التعليمى.
٢. افترَض فرض أو فروض للبحث.
٣. اجراء دراسة استكشافية توفر الأساس للملاحظة الشاملة لكل ما يجرى فى النظام التعليمى.
٤. القيام بالدراسة الاجرائية التي قد تتمثل في اجراء المقابلات واستطلاع الأراء واختبارات للطلاب...
٥. جمع البيانات والإحصائيات وتنظيمها.
٦. تحليل البيانات وتفسيرها ، والربط بينها وبين القوى الثقافية التى أثرت فيها، وأدت إليها .

وتستخدم هذه الطريقة إذا كان الهدف من الدراسة نفعياً إصلاحياً، وهى الطريقة المستخدمة فى الرسائل العلمية للحصول على الماجستير أو الدكتوراه فى التربية المقارنة

والمستخدمة فى كل دراسة نفعية إصلاحية غير الحصول على درجة علمية (وهيب سمعان ومحمد مرسي، ١٩٦٠).

وعادة ما يبدأ الكاتب بعد عرض المشكلة والغرض من البحث وخطة الدراسة بعرض تاريخى للبلد – يصف بعده المشكلة فى وضعها الراهن ، مستخدماً فى ذلك الإحصاءات والبيانات والقوانين وغيرها ، ثم يلقى عليها الضوء بالتفسير والتحليل مستخدماً القوى الثقافية المختلفة ، وقد يكون تفسير، وتحليله أثناء العرض ، أو بعد العرض الوصفى للمشكلة والنظام ثم ينتقل بعد ذلك إلى ما يراه من حلول ملائمة.

الطريقة الثانية :

ترتبط هذه الطريقة بدراسة الحالة سواء فى ذلك دراسة نظام التعليم فى بلد من البلاد، أو دراسة مشكلة من مشكلاته بهدف الإصلاح ، أو بهدف المتعة العقلية أو للهدف العلمى الأكاديمى . وتسير هذه الطريقة في عدد من الخطوات يمكن ايجازها في السطور التالية:

١. البدء – عادةً– بعرض تاريخى لموضوع الدراسة.
٢. اجراء دراسة مسحية للنظام التعليمى مع التركيز على المشكلة إن كان الهدف إبراز هذه المشكلة.
٣. بيان القوى الثقافية المرتبطة بمشكلة الدراسة.
٤. تقديم بعض التوصيات (عبد الغني عبود، ١٩٩٣).

الطريقة الثالثة :

ترتبط هذه الطريقة بعرض القوى الثقافية و بيان انعكاسها على التعليم فى فترتين تاريخيتين فى بلد واحد [مثل ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ فى مصر مثلاً ، أو نظام التعليم فى

الاتحاد السوفيتى قبل الثورة البلشفية وبعدها ، وهكذا. وواضح أن الغرض من مثل هذه الدراسة هو المتعة العقلية أو الهدف العلمى الأكاديمى ،دون الهدف الإصلاحى .

وعادة ما يبدأ الدارس بعرض القوى الثقافية، ثم بيان انعكاسها على التعليم فى كل فترة ، ثم يختم دراسته عن الفترتين بفصل يجمع [المتغيرات] التى حدثت فى [الشخصية القومية، وانعكاسها علي التعليم (عبد الغني عبود واخرون، ١٩٨٩) وقد يبدأ قبل ذلك كله بمقدمة تاريخية تلقي الضوء علي تلك (الشخصية القومية) عبر عصورها التاريخية .

الطريقة الرابعة :

ترتبط هذه الطريقة بعرض الإطار الأيديولوجى العام في مجموعة من البلاد ثم بيان انعكاساته علي التعليم في تلك البلاد. والغرض من مثل هذه الدراسة هو المتعة العقلية أو الهدف العلمى الأكاديمى. وقد يشير الكاتب فى نهاية دراسته إلى بعض الإصلاحات التى يراها فى ضوء الإطار الايديولوجى والقوى الثقافية المؤثرة فيه.

الطريقة الخامسة :

ترتبط هذه الطريقة بعرض احدي النظريات السياسية أو الاقتصادية أو الدينية ثم بيان انعكاسها على التعليم ، ويبدأ فى مثل هذه الطريقة بالنظرية وتطبيقاتها المختلفة وانعكاساتها على بقية القوى الثقافية ، ثم انعكاس ذلك كله على التعليم فى مجموعتين متناقضتين من البلاد [الشيوعية والرأسمالية الديمقراطية والديكتاتورية – الدينية والعلمانية ، وهكذا(عبد الغني عبود واخرون ١٩٨٩).

وبجانب هذه الطرق الخمس طرق أخرى عديدة لا يمكن عدها ولا حصرها ويتوقف استخدام الطريقة العلمية على وجهها الصحيح على الاستعداد الفطرى للمرء ، وعلى النظرة التى اكتسبها من خلال ثقافته وخبرته (والدمار كمفرت ١٩٦٤). ذلك لأنّ الأمر فى

النهاية يتوقف على شخصية الكاتب ذاته ، وغرضه من بحثه وثقافته العلمية وميوله واهتماماته الشخصية وما يطرأ عليه من ظروف أثناء قيامه ببحثه، فكثيراً ما يخطط الكاتب لبحثه بطريقة معينة ، ثم إذا به – من تلقاء نفسه – يحس بأنه خطأ، وبأنه محتاج إلى تعديل خططه ، إذ تفرض عليه الدراسة نفسها الطريق الذى يجب أن يسلكه، والطريقة التى يجب أن يتبعها ، فمناهج البحث فى التربية المقارنة وفى غيرها من العلوم التربوية وغير التربوية لم ولن تكون [قيداً] يفيد الكاتب بقدر ما هى عون له فى سعيه للوصول إلى الحقيقة وتحقيق الهدف المنشود.